

تفسير البحر المحيط

@ 245 @ تَجْعَلُواْ لِلّٰهِ أَدَاً { . فلو جرى الكلام على هذا السياق لكان مما نزل على عبده ، لكن في هذا الالتفات من التفخيم للمنزل والمنزل عليه ما لا يؤديه ضمير غائب ، لا سيما كونه أتى بنا المشعرة بالتعظيم التام وتفخيم الأمر ونظيره ، { وَهَوَّاهُ السَّذَى أُنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا { ، وتعدي نزل بعلى إشارة إلى استعلاء المنزل على المنزل عليه وتمكنه منه ، وأنه قد صار كالملايس له ، بخلاف إلى فإنها تدل على الانتهاء والوصول . .

ولهذا المعنى الذي أفادته على تكرار ذلك في القرآن في آيات ، قال تعالى : { نَزَّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } ، طه { مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْنَا الْفُتُورُ } ، { هَوَّاهُ السَّذَى أُنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا { . وفي إضافة العبد إليه تعالى تنبيه على عظيم قدره ، واختصاصه بخالص العبودية ، ورفع محله وإضافته إلى نفسه تعالى ، واسم العبد عام وخاص ، وهذا من الخاص : % (لا تدعني إلا بيا عبدا % . لأنه أشرف أسمائي .

. %)

ومن قرأ : على عبادنا بالجمع ، فقل : يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأمته ، قاله الزمخشري ، وصار نظير قوله تعالى : { وَأَن * إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنَ قَبْلِنَا } ، لأن جدوى المنزل والهداية الحاصلة به من امتثال التكاليف ، والموعود على ذلك لا يختص بل يشترك فيه المتبوعون والتابع ، فجعل كأنه نزل عليهم . وذلك نوع من المجاز يجعل فيه من لم يباشر الشيء إذا كان مكلفاً به منزلة من باشر ، ويحتمل أن يريد به النبيين الذين أنزل عليهم الوحي ، والكتب والرسول أول مقصود بذلك ، وأسبق داخل في العموم ، لأنه هو الذي طلب معاندوه بالتحدي في كتابه ، ويكون ذلك خطاباً لمنكري النبوات ، كما قال تعالى ، حكاية عن بعضهم : { وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُ شَذَاءٍ } . ويحتمل أن يراد بالمفرد الجمع . وتبينه هذه القراءة كقوله تعالى : { وَادَّكُرُ عَيْدَنَا * إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ } ، في قراءة من أفرد ، فيكون إذ ذاك للجنس . .

فأتوا بسورة : طلب منهم الإتيان بمطلق سورة ، وهي القطعة من القرآن التي أقلها ثلاث آيات ، فلم يقترح عليهم الإتيان بسورة طويلة فتعننوا في ذلك ، بل سهل عليهم وأراح عليهم

بطلب الإتيان بسورة ما ، وهذا هو غاية التبكيت والتخجيل لهم . فإذا كنتم لا تقدرّون أنتم ولا معاضدوكم بالإتيان بسورة من مثله ، فكيف تزعمون أنه من جنس كلامكم ؟ وكيف يلحقكم في ذلك ارتياب أنه من عند الله ؟ .

وقد تعرض الزمخشري هنا لذكر فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً ، وليس ذلك من علم التفسير ، وإنما هو من فوائد التفصيل والتسوير . من مثله : الهاء عائدة على ما ، أو على عبدنا ، والراجح الأول وهو قول أكثر المفسرين ورجحانه من وجوه : أحدها : أن الارتياب أولاً إنما جاء به منصّباً على المنزل لا على المنزل عليه ، وإن كان الريب في المنزل ريباً في المنزل عليه بالالتزام ، فكان عود الضمير عليه أولى . الثاني : أنه قد جاء في نظير هذه الآية وهذا السياق قوله : { فَأَوْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ * فَأَوْتُوا